دكتور توفيق محمد شاهين

سورة يوسف عليه السلام

نظرات .. وعبرات

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكُلًا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ ، وَمَوْعِظَةٌ ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

صدق الله العظيم

---

(١) هود : ١٢٠ .

(٢) يوسف : ١١١ .

تقديم

من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ؛ وأسوة حسنة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

واختص الله سبحانه رسله بالوحى ، والآيات الباهرات . . تصديقًا لهم فى دعواهم فيما يبلغون به عن ربهم ، وجعل فى قصصهم عبرة لأولى الألباب عظة لقومهم ولمن يأتى بعدهم .

وعصمهم من المعاصى وطهرهم تطهيرًا ؛ ليكونوا قدوة طيبة وأسوة حسنة .

* وبعض من يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وبعض المتعالمين والملحدين تخيلوا أنفسهم مستنيرين وفاقهين . . فنالوا وخاضوا فيما ليس لهم به علم ، أو أثارة من علم . . وتطاولوا على رسل الله وأنبيائه ، وهم صفوة الخلق - وبثوا سمومهم جهلاً وطيشًا . . واستندوا إلى عقول قاصرة ، وما لاكته ألسنة غير طاهرة ، وما جاء فى كتب محرفة ما أنزل الله بها من سلطان . . .

فكان من الواجب على العلماء التصدى لهذا التطاول ، وبيان الحق وإزهاق الباطل ، وإضاءة شمعة على الطريق اللاحب خير من لعن الظلام .

* * *

والرسول - أى رسول - لا يخالف أمرًا إلهيا فى تبليغ رسالة الله الواحد الأحد ، أو يقترف أمرًا يخل بطهارته ، ويقدح فى عصمته ، ويعيب سلوكه كإنسان سوىّ مختار. . وهنا محل العصمة للرسل .

أما ما كان عن اجتهاد فيما لا نص فيه .. تحت ظلال هدى التشريع .. فهذا رأى قد يكون خلاف الأول .. وحين يأتى الوحى - بعدئذ - يبين للرسل أنهم رأوا خلاف الأول :

فمثلاً : أسر المسلمون فى غزوة بدر سبعين من رؤوس الكفر والضلال .. واستشار النبى محمد ﷺ أصحابه . فأشار عمر - رضى الله عنه - بضرب أعناقهم كسرًا لشوكة الشرك وأهله ، وأشار أبو بكر - رضى الله عنه - بأخذ الفدية - تقوية للمسلمين - ورجاء أن يهدى الله الضالين ، فأخذ الرسول برأى أبى بكر فى العفو ، ونزل

الوحى يرجح رأى عمر بن الخطاب فسألوا الله العفو .. لا لمعصية ارتكبوها ، ولكن لأن اجتهادهم صادف خلاف الأولى ، يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ (يكثر القتل) ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا (غنائم الحرب) وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ (بالمغفرة والرحمة) لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

* ويستأذن بعض ضعفاء الإيمان الرسول فى عدم الخروج للحرب ،لأنه ليس فيه نفع دنيوى لهم ، فأذن لهم الرسول .. فنزل القرآن الكريم يعاتبه على إذنه لهم بالقعود ، ويبين له العلة والله الرحيم صدر العقاب بالعفو، يقول سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا (دنيويًا) وَسَفَرًا قَاصِدًا (متوسطًا) لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ (المسافة) ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ (كاذبين) لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ

---

(١) الأنفال : آية ٦٧ ، ٦٨ .

(بالتخلف عن الجهاد) ، واللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنكَ ، لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ (فى التخلف) حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

ويثير بعض اللاهين غبارًا وتساؤلات عن يوسف الصديق ورسالته ، فى معانى بعض آيات اشتبهت عليهم، وألفاظ غمضت عليهم واستعصت ، وأمالى أثارها غافلون أو شانئون . . ولم يسألوا عنها أهل الذكر ؛ فقالوا بغير علم، وأفتوا برأيهم القاصر، وتخبطت أقوالهم لاختلاف أفهامهم . . . فكان لابد من هاد لإبانة الطريق ، ورد الحق إلى نصابه ، وإرشاد الحيارى وحفظ الناشئة .

* وفى هذه الرسالة ردود هادئة وهادية لما أثير ويثار فى إيجاز ، وبيان الحق وإزهاق الباطل .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ،

كندا فى ربيع الثانى ١٤١٧هـ . **د . توفيق محمد شاهين**



---

(١) التوبة : ٤٢ ، ٤٣ .

مع قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

أولاً : يوسف نبى ورسول :

من الناس من لا يعترف بنبوة يوسف . . وهذا خطأ ، لأنه نبى ورسول كما سنذكر ، وفى قصة يوسف عظات وعبر لمن أراد العبرة ، وفى قصة يوسف ويعقوب دروس تحتاج إلى كتب .

يقول علماء التوحيد : لابد فى صحة الإيمان من معرفة أسماء الأنبياء ، وعدم إنكار ما جاء به القرآن الكريم ، وقد ذكر الله تعالى ثمانية عشر نبيًا فى سورة الأنعام حيث يقول سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ

وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

فذكر يوسف مع الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وبقى من أسماء المرسلين المذكورة فى القرآن الكريم سبعة ، نظمهم الناظم فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية : من بعد عشر ، ويبقى سبعة وهم :

إدريس هود شعيب صالح وكذا : ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا فيجب الإيمان بهؤلاء الرسل أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليهم .

والقرآن الكريم تحدث عن يوسف بأنه من المرسلين مثل أبيه وأجداده ، قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَى

---

(1) الأنعام : ٨٣ - ٨٦ .

أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

والرؤية الصادقة تعتبر فى النبوة تمهيدًا لها ، وقد رأى يوسف فى صغره رؤيا فسرها أبوه يعقوب له فجاءت حقًّا- كما فى سورة يوسف الآية (١٠٠) - كفلق الصبح .

وذكر القرآن ليوسف ما كان للأنبياء والرسل :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وأوحى الله إليه وهو فى السجن ما يطمئنه على الخاتمة الطيبة :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

ولما سجن يوسف ظلمًا قال لشابين استفتياه فى رؤية لهما ، قال لهما :

---

(١) يوسف : ٦ .
(٢) يوسف : ٢٢ .
(٣) يوسف : ١٥ .

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إلا نَبَّأْتُكُمَا بتَأْوِيله قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ، ذَلكُمَا ممَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إنِّى تَرَكْتُ ملَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَهُم بِالآخِرَة هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ ملَّـةَ ءَابَآئِى إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِالله من شَىْء ، ذَلكَ من فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

ثم دعا السجينين إلى الإيمان بالله الواحد الأحد :

﴿ يَا صَاحِبَى السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَاتَعْبُدُونَ من دُونِه إلا أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا من سُلْطَان، إِنِ الْحُكْمُ إلا لله أَمَرَ أَلا تَعْبُدُواْ إلا إِيَّاهُ ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وتلك هى دعوة الرسل والأنبياء .

وخاتمة سورة يوسف تدل على رسالته :

---

(١) يوسف : ٣٧ ، ٣٨ . (٢) يوسف : ٣٩ ، ٤٠ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

ومؤمن آل فرعون رأى الحق فى دعوة يوسف ، وحذر قومه من التكذيب به كما كذبت الأمم السابقة أنبياءها فحقت عليهم كلمة العذاب ، ثم ذكر أن يوسف جاء بالتوحيد قبل موسى .. يقول الله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۞ وَيَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ ،

---

(١) يوسف : آية ١٠٩ .

(٢) يوسف : آية ١١١ .

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ من بَعْدِه رَسُولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (١) .

والرسول محمد ﷺ قال : كما جاء فى البخارى عن ابن عمر : [الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم] ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وسئل النبى محمد : أى الناس أكرم ؟ فقال :

[فأكرم الناس : يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله] .

وإذن فيوسف نبى ورسول وقومه هم قوم فرعون وهم المصريون قال المؤرخون ، إنهم كانوا فى عهد العمالقة ، الذين شغلوا تاريخ مصر بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة ، قبل الميلاد .

* * *

ثانيًا : الغرض من قصة يوسف ومناسبتها :

وجاءت تفاصيل قصة يوسف فى هذه السورة ؛

---

(١) غافر : آية ٣٠ - ٣٤ .

لأن مشركى مكة عاندوا النبى محمد أشد العناء والعناد ، كما ورد فى السورة السابعة : سورة [هود] .فأمره الله تعالى أن يصبر ، وأخبره بأن هذا شأن الأنبياء جميعًا فى تلقى البلاء من أقوامهم ، والسعيد منهم من آمن بالله ورسوله - والشقى من جحد ذلك ، وسيجازيهم الله على ذلك يوم القيامة فى الجنة الخالدة ، أو النار الموقدة .

وأشار إلى موسى وما لاقاه من قومه . وأمر الله نبيه بالمداومة على الاستقامة هو ومن آمن معه ، والصبر على ما لاقاه ويلاقيه من قومه .

وأن اختلافهم فى الطاعة والمعصية . . جعل فريقًا منهم فى الجنة وفريقًا فى السعير ؛ لتعمر الجنة بالطائعين ، والنار بالكافرين . لنثبت بالقصص فؤادك وتواصل السير فى الدعوة إلى الله . . . ثم قص عليه سبحانه سورة يوسف كاملة ليتأسى بها .

ولم تكن قصة يوسف معروفة لدى قومه - ولعل من أجل ذلك افتتح الله سبحانه سورة يونس بقوله :

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، أى الحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقال سبحانه فى مفتتح سورة هود : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ

فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾، أى من عند الله الحكيم في أقواله ، الخبير بعواقب الأمور .

وقال سبحانه في آخر سورة هود : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكانت خير مناسبة لذلك قصة يوسف التى كانت غريبة على العرب ، وليس لها شهرة [هود] و [يونس] ومن جاء فيهما من الأنبياء والمرسلين لدى العرب .. وجاءت أول آية منها تقول : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ، أى الواضح الجلى ، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويسفر عنها ويبينها .. فكانت معجزة في بيان ما حدث ليوسف ويعقوب من الآية ٤ - ١٠١ ، وأخبر محمداً : بأنك حريص على إيمان قومك ، ولكن لن يؤمن منهم إلا من هداه الله وقبل هداية الإيمان من الآية ١٠٢ إلى آخر السورة .

* * *

ثالثًا : قصة يوسف وأبيه في إيجاز :

١- يوسف نبى كريم في سلسلة أنبياء عظام : فهو

ابن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا ، أصغرهم بنيامين ، وأكبرهم يهوذا أو روبيل أو شمعون ، ويوسف وبنيامين أمهما : راحيل بنت لابان خال يعقوب ، ويعقوب وبنوه كانوا أهل إبل وغنم يرعونها فى فلسطين .

٢- ولصغر بنيامين ويوسف أصبحا أحب أولاد يعقوب إلى قلبه كما هى العادة . . ويوسف كان فى غاية الجمال الذى لا يوصف ، ومن هنا كان حقد إخوة يوسف العشرة على يوسف وشقيقه ، والعجيب أن رأس المتآمرين ، يهوذا أشار بعدم قتل يوسف وإنما يمكن إلقاؤه فقط فى البئر أو إهماله فى البرية لئلا يرجع إلى أبيهم ، وهو أيضًا الذى أتى بالقميص لأبيه ليصبح بصيرًا ؛ بعد حزن أعماه وأضناه .

٣- ورأى يوسف فى منامه أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سجدوا له . . فلما قص الرؤيا على أبيه علم أباه أنّ ابنه سيكون له شأن عال ، فبشره باصطفاء الله له ، وتعليمه إياه بتأويل الرؤيا ، وقال ليوسف : لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا بسبب وسوسة الشيطان الرجيم .

٤- قال إخوة يوسف لأبيهم أرسل يوسف معنا غداً يأكل ويلعب وسنحافظ عليه تمام المحافظة .. فقال لهم أبوهم : أخاف عليه أن يأكله الذئب وأنتم لاهون عنه ، ويبدو أن مكان الرعى كان فيه ذئاب كثيرة ، أو فيه ذئب مشهور معهود لأنهم عرفوا الذئب بالألف واللام فأكدوا لأبيهم أنهم سيرعون يوسف ويحفظونه ، فوافق أبوهم على كره ؛ للإلحاح عليه ، وفرح الإخوة بذلك ليتخلصوا من يوسف ولو بالقتل أو غيره ، ويكون حب أبيهم لهم وحدهم ، إذ هم أبناء علات : من أب واحد ، وأمهاتهم شتى .

٥- وكاد إخوة يوسف العشرة لأخيهم .. وبعد مشاورة فى البرية حن الدم لبعضه لأنه ليس ماء .. فأشار أكبرهم بإلقاء يوسف فى البئر بدلاً من القتل – عسى أن يلتقطه بعض المارين والطالبين للماء من الآبار .. وادعوا أنهم تسابقوا فيما بينهم وتركوا يوسف عند ثيابهم فأكله الذئب ، وهذا قميصه كشاهد على ذلك .. فتأمل أبوهم القميص الملطخ بالدم الكاذب فلم يصدق إدعاءهم ؛ لأنه وجد القميص غير ممزق ... فقال : ما أرحم هذا الذئب أكل ولدى ولم يمزق قميصه .. وفوض أمره إلى الله تعالى ، وأضناه الحزن وضعف بصره كثيراً لذلك .

٦ - ومرت قافلة وطلبوا الماء من البئر العميق فتعلق يوسف بالدلو ، فأخذوه وظنوه متشردًا أو سارقًا ، أو عبدًا هاربًا من سيده ولذلك باعوه بثمن بخس زهيد خوفًا منه ، وتخلصًا ؛ إذ ربما كان هاربًا من سيده أو شابًا مشاغبًا ، فاشتراه ملك مصر أو قائده بثمن زهيد . . وقال لزوجته : أكرميه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ما دام ليس عندنا أولاد ، وكذلك شاء الله ليوسف الخير والعلم والرفعة ، فى هذه المحنة ، وفى المحن منن من الله عند الصبر .

٧- وكما قلنا : كان يوسف باهر الحسن والجمال . . فأحبته زوجة العزيز حبًا ملك عليها شغاف قلبها ، وراودته عن نفسه ليفعل معها الفحشاء والمنكر فاستعصم بالله ، ولم يشأ أن يخون سيده الذى آواه وأكرمه . . وعاودت سيدته مراودته فلم يقبل ، أحكمت يومًا إغلاق الأبواب، ودعت يوسف بعد أن تهيأت له . . وسبقها إلى الباب هربًا . . فجذبت ملابسه من الخلف فتقطعت . . وفتح الباب وكان سيده عند الباب ، فبكت إمرأة العزيز بدموع مكذوبة تتهم يوسف بمراودتها ، وأشارت على زوجها بتعذيبه أو يسجن وهكذا تكون افتراءات واتهامات الطبقات العالية ، واقتراح العقوبة فى

نفس الوقت ، لكثير من الكادحين والبرءاء ، بسبب تسلط الهوى والشيطان وبطر الغنى ، فشهد قريبها « الحكم » بأن قميصه تمزق من الخلف فهو فى موقف الهرب لا الهجوم . . وحكم ببراءة يوسف ، وخطأ زوجة العزيز . وسنذكر أدلة براءة يوسف ومراودة امرأة العزيز له عن نفسها ، تأكيدًا لبراءته وطهارته وعفته كما سنذكر فيما بعد . . وكذلك معنى همت به وهم بها .

٨- وغالبًا تشيع الشائعات فى الطبقات الراقية فانتشر الخبر وسرى وشرق وغرب بسبب أحاديث النساء المترفة الفارغة فى القصور ، فى الحال . . وتشاور العزيز مع بطانته فرأوا أن يسجن يوسف - مظلومًا - منعًا للشائعات ، فدخل يوسف السجن . ويقول المثل : **المنن والعطايا تكمن فى المحن** . . وسنرى دائمًا لليل آخر ، وللصابرين أجرهم العظيم وللصابرين الأجر وفرج الله سبحانه .

٩- واغتاظت زوجة العزيز من شائعات النساء ممن حولها - فدعتهن لوليمة فى مكان مريح ، وجاءت بفاكهة وأعطت كل واحدة منهن سكينًا ، وقالت ليوسف أخرج عليهن . . فذهلن لجماله وقطعن أيديهن بدون شعور ، وقلن هذا ملك كريم . . قالت هذا الذى لمتننى فيه . .

ومع ذلك فأنا مصرة على أن يسجن إذا لم أنل منه ما أريد . . فرضى يوسف بالسجن ولم يستجب لها ، ورحب بالظلام والضيق ، والعيش مع المجرمين على أن يخون أصله ودينه وسيده وياليته ما تمنى السجن ؛ لأن من المكروه أن يدعو الإنسان على نفسه ، فربما صادف ساعة إجابة ، ومكث فى السجن سنوات يعبد الله تعالى ويُعَلِّم الأخلاق الفاضلة ويدعو للواحد الأحد .

١٠- ورأى سجينان رؤيا . . فطلبا من يوسف السجين الصالح تعبير الرؤيا لهما ، فمهد لتعبير رؤياهما بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده وعبادته ، ونفَّر من الشرك وأهله . . ثم قال للذى رأى أنه يعصر خمرًا : ستكون ساقيًا للملك ومقربًا منه ، وقال للذى رأى الخبز على رأسه والطير تأكل منه : ستقتل وتصلب على شجرة وتأكل الطير من رأسك . . ولولا صلاح يوسف لما قال له السجينان : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾[1] ، والصالح دائمًا محترم ومقدر حتى من غير الصالحين ، وذلك من كرم الله لعباده المخلصين .

١١- وقال يوسف لمن سيكون ساقى الملك : اذكر

(١) يوسف : ٤٦ .

قصتى عنده ، ليراجع الأمر ويقتنع ببراءتى ويعفو عنى لأنى برىء، فنسى الساقى بعد خروجه من السجن الرسالة ، فلبث يوسف فى السجن بضع سنين أخر (والبضع لغة من ثلاث سنوات إلى سبع) ،كأنها عقاب له على شكواه ، وكان الأجدر به أن يرضى بالواقع ، ويفوض الأمر لله . . ولكن يوسف **ما ذكر ذلك للشكوى** وإنما للظلم الذى وقع عليه ، ولطول مدة السجن ، فلا لوم على يوسف فى ذلك ، ولذا قال نبينا محمد ﷺ: [لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى] . .أى لخرجت من السجن فلا لوم على يوسف فى تذكير الملك بقصته كما سنرى .

١٢- وجاء **الفرج ليوسف** فى تفسير لمنام رآه الملك - والرؤيا تكون من المسلم وغير المسلم - إذ رأى سبع بقرات سمان يأكلن سبع بقرات ضعاف ، وسبع سنبلات خضر ومثلها يابسات . . وسأل الذين يعبرون الرؤيا تفسير ذلك فعجزوا واعتذروا بأنهم لا يعرفون التأويل والتفسير للمنامات ، وهذا شأن العلماء العقلاء : ألا يقولوا شيئًا بغير علم خوفًا من الله ، فتذكر الساقى أن يوسف فسر له منامه ، ومنام زميله . . وصدق فى التفسير والتأويل لهما

ومن هنا قال للملك : أرسلونى إلى السجن لأقابل يوسف السجين فهو بتأويل الرؤيا عليم . .

وسأله ساقى الملك عن تفسير الرؤيا فقال : ستكون أرضكم خصبة سبع سنين تنتج كثيراً ، وتأتى بعد ذلك سبع سنين مجدبة القحط ليس فيها إنتاج ، فما رزقكم الله فى سنوات الخصب فدعوه فى أعواده وسنابله إلا القدر الذى تحتاجونه لقوتكم وبذوركم ، ليبقى مدخراً لسنوات الجدب والضنك والجوع ، وبعد سنين الجدب يأتيكم عام مزدهر بالخيرات والبركات ، إن شاء الله تعالى .

فرح الملك بالتفسير وقال لمن حوله : ائتونى بيوسف ليكون بجوارى معززاً مكرماً . . فرفض يوسف حتى يسألوا النسوة اللاتى قطعن أيديهن ليشهدن ببراءته . . فشهدن صراحة ببراءته . . وهنا قالت إمرأة العزيز : الآن يظهر الحق ويعلو : أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين الطاهرين ، فقربه الملك إليه وجعله من خلصائه . . فقال له يوسف : اجعلنى وزيراً للتموين والتجارة ، لأنى حفيظ عليم - فالحفظ يقتضى الأمانة ، والعلم يقتضى حسن التصرف . . فولاه الملك ذلك ، وشكر يوسف ربه لأنه أحسن إليه جزاء طهارته وأمانته ، وكان رحمة وخيراً

فى سنين الجدب على مصر ، ومن حولها من الأقطار .

ونفهم مما سبق : **أن منام الكافر يصح ، وأن طالب الوظيفة والولاية يولى إذا كانت مؤهلاته وأمانته تزكيه** والويل لمن يولى إنساناً ليس أهلاً للوظيفة والأمانة ، لأنه يخون الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، كما قال النبى الأمين .

١٣- وعم القحط مصر وما حولها .. وكان حسن التصرف من يوسف فى الادخار زمن الرخاء لزمن الشدة والجدب عمل رشيد ، أنقذ البلاد من هلاك محقق . ونحن نقول فى المثل : قليل المال المدخر فى اليوم الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ، ففى السورة ما يشير إلى حسن الاقتصاد وإرشاد الإنفاق ، والرسول الكريم يقول : [لا عال من اقتصد] ، أى لا يصبح عالة على أحد ، وأصاب الجدب والقحط كل البلاد المحيطة بمصر ، وتولى يوسف بإشرافه تزويدهم بما يحتاجون من القوت فى أمانة ونزاهة وإنسانية .

١٤- وجاء إخوة يوسف العشرة من فلسطين يطلبون الميرة والقوت من مصر ، فأكرم يوسف وفادتهم ، ثم أعطاهم حمل بعيرلكل واحد كما هو مقرر عند وزير

التجارة والتموين . . وعرفهم يوسف بذكائه ، وإخوته لم يعرفوه لطول المدة . . ثم سألهم عن حالهم وعددهم ونسبهم فذكروا له أن أباهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأن لهم أخ اسمه بنيامين ترك مع أبيه لصغر سنه . . فقال لهم - كما قيل - إن جنده يشكون فى أنهم جواسيس ، فإذا قدموا لطلب المعونة فى العام القادم فليحضروا معهم أخاهم الصغير . . حتى يصدقهم ، وحتى يعطيه حمل بعير أيضاً ، وإلا فلا يحضروا ، ولا ميرة لهم ولا مساعدة . . فوعدوا بأن يستسمحوا أباهم فى حضوره مستقبلاً معهم ، ويحاولوا ذلك جهدهم .

وقبل انصرافهم أمر يوسف رجاله أن يجعل الثمن الذى دفعوه داخل أحمالهم ليجدوه فى بلادهم ، ويشجعهم على الحضور ، ثم انصرفوا بأحمالهم إلى بلادهم ، ووجدوا نقودهم فى داخل بضاعتهم ، فأخبروا أباهم بما جرى وحاولوا معه أن يذهب معهم بنيامين وهم يحوطونه ويحفظونه ، ورفض أبوهم الأمرسلفاً ، لأنه جربهم على يوسف من قبل ، وفقد يوسف فلا يريد فقدان أخيه من بعده . . ووافق أبوهم أخيراً حين ألحوا ، وأعطوه المواثيق على حفظه إلا إذا غلبهم أمر قاهر . .

١٥- **ونلاحظ هنا** : أن أخاهم يوسف لم يكشف لهم عن نفسه ، وتحايل على إحضار أخيه تمهيداً لحضور الأهل أجمعين إلى مصر . ولم **يكذب أو يغش** فى ذلك ، لأنه خاف على أخيه من أذاهم ، إذ ربما قتلوه لو علموا بالأمر ، وإرادته إحضارهم أجمعين إلى مصر .

ولا بأس فى الشرع بأن يحتال الإنسان لأخذ حقه بأية طريقة حق يراها مادام مظلوماً بين مظلومين ، مع محاولة حفظ أخيه من مكرهم كما مكروا بيوسف من قبل . فليس عليه عيب فى ذلك .

١٦- وبعد إلحاح وتعهدات وافق يعقوب على إرسال بنيامين معهم ، وتوكل على الله ، وأكدعليهم ضرورة الحفاظ عليه إلا أن يغلبهم غالب . . وأوصاهم أن يدخلوا على الملك فى مصر متفرقين من أبواب مصر خشية الحسد ولئلا يظن أنهم جواسيس جاءوا جملة للجوسسة - إذ كان بين المصريين والعبرانيين سوء ظن وتربص وكراهية - وأوصى يعقوب أبناءه بأن يردوا الثمن الذى وضعه يوسف فى رحالهم ، ليكونوا أمناء شرفاء .

وجاء إخوة يوسف ومعهم بنيامين وعرفه يوسف وعرفه

بنفسه ، وأمره بكتمان ذلك عنهم فكتمه الصغير بنيامين .. ثم أمر يوسف تجهيزهم بأحد عشر حملاً ، وأوعز إلى بعض أعوانه بوضع كأس الشراب للملك فى حمل أخيه الصغير .. ثم نادى مناد : أيها الجمع إنكم لسارقون .. فسألوا القائل : ماذا فقدتم ؟ قالوا فقدنا كأس الشراب للملك .. ومن يأت به له حمل بعير .. وبدأ أعوان يوسف فى التفتيش ببضاعة إخوة بنيامين أولاً .. فما وجدوا شيئاً ، ثم وجدوه فى حمله وبضاعته . فقال يوسف نعاقبه على شريعتكم بأن يكون عبداً لمن سرق منه ، ولا نعاقبه بقانون مصر من الضرب والحبس فلما وجدوا الكأس فى متاع بنيامين لاموه وأنبوه وقالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل : يشيرون إلى أن يوسف سرق صنماً من جده لأمه وكسره ، أو ادعت عليه خالته السرقة ليبقى معها كعبد لها لحبها ليوسف وخوفها عليه أو له كما هى شريعة يعقوب . **فقال يوسف فى نفسه** : أنتم الأشرار ، لأنكم عرضتم أخاكم للضياع وأحزنتم أباكم زمناً طويلاً ولم يصرح لهم بالحقيقة - رجاء أن يحضر أباهم ومن حوله بعدئذ سالمين ، ويعيشوا هانئين معاً .

١٧- ثم عرضوا على يوسف أن يأخذ أحدهم عبداً بدلاً من بنيامين ، فرفض لأنه [لا تزر وازرة وزر أخرى] . وتضرعوا فرفض يوسف .. وبقى بنيامين مع أخيه .. وخجل أكبر الإخوة يهوذا أو روبين من أن يقابل أباه مرة أخرى بفقد ولده الثانى المحبوب .. فبقى فى مصر .. ويئس الإخوة من أخذ بنيامين معهم فذهبوا إلى فلسطين فرحلوا آسقين وأخبروا أباهم بما حدث من أخيهم بنيامين، فأحس يعقوب بإحساس النبوة والأبوة : أن فى الأمر شيئاً، ولكنه صبر وتصبر وفوض الأمر لله .

١٨- وبكى أبوهم كثيراً على ولده الثانى ، حتى ضعف بصره ، وهذا فى آخر شيخوخته .. فلامه أولاده على طول حزنه ، وقال لهم أبوهم : زينت لكم أنفسكم أمراً أسررتموه فى قلوبكم .. وأحس بإحساس النبوة أن فى الأمر شيئاً .. وانتظر فرج الله فى أن يأتيه بيوسف وأخيه بنيامين ..

وقال يعقوب لبنيه اذهبوا فتحسسوا [التحسس فى الخير، بينما التجسس فى الشر] ، من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا ؛ فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون .

١٩- فذهب إخوة يوسف إلى مصر مرة ثالثة ، ببضاعة رخيصة ، وشكوا إلى عزيز مصر جوعهم ؛ ورجوه قبول البضاعة الرخيصة والعملة التى لا قيمة لها ، (للركود الاقتصادى السائد) وسألوه الإحسان إليهم ودعوا له بالخير، وشكروه على حسن صنائعه السابقة ، فقال لهم أخيراً ليكشف لهم الحقيقة : هل تذكرون قبح ما فعلتم بيوسف وبنيامين ، وأنتم جهلة تسمعون لوسواس الشيطان؟ وهنا انتبه الإخوة وقالوا له : أأنت يوسف ؟ قال: أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا لتقوانا وصبرنا وإحساننا وذلك لا يضيع عند الله . قال الإخوة آسفين معتذرين : فضلك الله علينا بالعلم والحلم ، وكنا خاطئين فيما صنعناه ، وسألوه العفو . . فعفا يوسف عنهم ، وسأل الله لهم الرحمة والمغفرة ، ونسى ما كان منهم ، وهكذا الفضلاء والعظماء يعفون ويصفحون .

٢٠- وأعطى يوسف قميصه لإخوته ، ليلقوه على وجه أبيهم فيصبح بصيراً ، ويأتوه بالأهل كلهم إلى مصر ، فأصر يهوذا - أكبر الإخوة - على أن يحمل القميص إلى أبيه ليسره بعدما أحزنه فى التآمر على التخلص من يوسف ليكون حب أبيهم لهم وحدهم ، وحين وصلت القافلة

على مشارف الشام ، قال أبوهم - عليه السلام - إنى لأجد ريح يوسف ، ولولا أن تتهمونى بقلة العقل لقلت : إنه قريب منا .. فقال له من حوله : ما زلت تخرف وتهرف ، وجاء البشير [يهوذا] وألقى القميص على وجه أبيه فبرئت عيناه وأبصر من جديد . قال لهم : هذا ما قلته لكم ، ولكنكم جهلتمونى فيه .. فأنكبوا أمام أبيهم معتذرين نادمين يسألونه السماح والمغفرة من الله ، قال: سوف أستغفر لكم ربى فى السحر ؛ وأوقات إجابة الدعاء إن شاء الله تعالى ، وهو الغفور الرحيم :

فقميص يوسف الأول ضر يعقوب وأحزنه ، والآخر سره وبشره !!

٢١- ووصل يعقوب وآله كلهم إلى مصر فاستقبلهم يوسف أكرم استقبال ، وضم إليه والده وخالته التى تزوجها أبوه بعد أن ماتت أمه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع يوسف أبويه على سرير الملك ، وجلس معهم ، وسجد لهم إخوة يوسف الأحد عشر سجود تحية كعادة الملوك فى ذلك الوقت ، لا سجود عبادة ؛ لأنها لله سبحانه وحده ، وذكر أباه برؤياه حينما قصها عليه فى بلده .. وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد

جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى ربى حين أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو والصحراء ، من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف التدبير لما يشاء ، عليم لوجوه المصالح ، حكيم يفعل كل شىء فى غاية الإحكام .(يوسف : ١٠٠) ، ولم يذكر إلقاءه فى البئر لئلا يخجل إخوته ؛ والمؤمن الحق ينسى السيئات من الآخرين ، ويعفو عن الزلات ويحسن ، ونبينا محمد ﷺ يقول : [أشدكم بلاء الأنبياء والأتقياء ثم الأمثل فالأمثل : يبتلى الرجل على قدر دينه . . فإن كان فى دينه صلابة وقوة يزيد الله فى بلائه ؛ ليصبر ويصابر ويرضى بقضاء الله وقدره ، ويحمد الله فى السراء والضراء فيرفع من قدره ودرجاته ، وقد امتحن يوسف بمحن خلصه الله تعالى منها بلطفه وفضله . . فليعتمد المسلم على الله فى كل سراء وضراء ، ويحمده على الحالين .

٢٢- ثم شكر يوسف ربه على ما أولاه من النعم العظيمة ، وخلصه من الهم والغم ، ومنحه الملك والسيادة ، وتفسير الرؤى ، وتأويل العلم : يا خالق السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين . وهذه أمنية عظيمة على كل مؤمن أن يتمناها .

٢٣- وكما خاطبت الآيات الكريمة النبى محمدا ﷺ عند بدء السورة .. عادت إلى خطابه تسلية له فى آخرها بالوحى فيما قد كان بالغيب ؛ ليتأسى عن قلبه بالأنبياء ، وتخبره بأن أكثر الناس لن يؤمنوا برسالته مهما حاول معهم، إذ لهم قلوب لا يفقهون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وأعين لا يبصرون بها.. وكان الواجب عليهم أن يتأسوا بمن سبق ، ويتبعوا الهدى .. ولكن ذلك العصيان والتمرد شأن كل أمة عصت رسولها .. ويأتى نصر الله لرسله فى نهاية الأمر للنبى ومن آمن معه ، فمن شاء فليؤمن وله الجنة ، ومن شاء فليكفر وله النار ، والعياذ بالله سبحانه .

رابعاً : يوسف برىء ، والهم حديث نفس :

يوسف نبى كريم ، وأبوه وجده من أكابر الأنبياء والمرسلين كما ذكرنا - والعصمة من صفات الأنبياء ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالاً باطلة وواهية فى تفسير : [الهم] و [البرهان] ، وكلها خرافات وأباطيل ؛ لأن الزنى من أبشع الجرائم ؛ فلا تجول بخاطر الفضلاء من الناس .. فما بالك بالأنبياء ؟

والأدلة على براءة يوسف وعصمته تؤخذ من سورته ، وهى :

١- امتناعه الشديد وصلابته بعزم وقوة ، فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾(١) ، احتراماً لسيده ، وتقديراً لدينه ، وخوفاً من ربه تعالى.

٢- هروبه وفراره منها بعد أن غلقت الأبواب ، وشددت عليه الحصار : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ . . ﴾(٢) ، فلو مزقت قميصه من قبل أى من أمام لكان دلالة على هجومه عليها ، لا فرار منها فمزقت قميصه من الخلف .

٣- إيثاره السجن على الفاحشة : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾(٣) .

٤- ثناء الله عليه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(٤) ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾(٥) .. ولا يكون مخلصا لله وعالماً من هَمَّ بفاحشة .

٥- نطق الطفل فى المهد ، أو حكم الحكيم .. بأن

---

(١) يوسف : ٢٣ . (٢) يوسف : ٢٥ . (٣) يوسف : ٣٣ .
(٤) يوسف : ٢٤ . (٥) يوسف : ٢٢ .

قميصه قد من الخلف عند الفرار ، لا من الأمام إذا كان هجوماً منه عليها .

٦- اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾(١) والاعتراف سيد الأدلة.

٧- استغاثته بربه ، لينجيه من كيد النساء : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٢). ولو قال الله : لنصرفه عن السوء لكانت شبهة ضد يوسف: أى أنه هم فعلاً ، ولم يرجع إلا حين صرفناه نحن عن السوء .

٨- إدخاله السجن لدفع مقالة الناس ، بعد براءته بالبراهين الساطعة : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَات لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (٣) ، حتى تبعد التهمة عن امرأة العزيز ، حين طفق الناس يتحدثون فى الأمر .

٩- رفضه الخروج من السجن ، حتى تبرأ ساحتة من التهمة أمام العالم : ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسأَلْهُ مَا بَالُ

---

(١) يوسف :٣٢ . (٢) يوسف : ٣٤ .

(٣) يوسف : ٣٥ .

النِّسْوَةِ اللاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1] ؛ فلو كان متهماً لهرول فى الخروج من السجن ، لأية بادرة خلاص وبراءة.

١٠- امرأة العزيز والنسوة اعترفن ببراءته قالت النسوة : حاش لله ماعلمنا عليه من سوء . ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[2] . فما أنضر وأنصع طهارة يوسف وعصمته !

ومعنى الهمّ إذن من يوسف بمعنى : خطور الشىء بالبال أو ميل الطبع : أى مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية . وحديث نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفس دون عزم وقصد : كالصائم فى الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه وصيامه عنه . . ولذا قال الله تعالى :﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾[3] ، أى ثبتناه على العفة والطهارة . . ولو كان الهم منه بمعنى الفعل القبيح لكان التعبير : [لنصرفه عن السوء والفحشاء] . . فالصرف

---

(١) يوسف : ٥٠ .   (٢) يوسف :٥١ .
(٣) يوسف : ٢٤ .

عن السوء يدل على أن الهم كان خارجاً عن إرادته ، بما منحه الله من موجبات العفة والعصمة . [**أوهمت به فعلا، وهم بها تركاً**] .. ويجوز أنه امتنع من الهم بها لوجود البرهان ؛ **إذ لولا حرف امتناع لوجود** . والبلاغيون يقولون : إن « **الهم** » من باب المشاكلة : أى الاتفاق فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى : فالهم منها كان عزم وقصد ، والهم منه كان حديث نفس ويماثل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾(٢) ، وليس الله سبحانه ماكراً ولا خادعاً ، وإنما ذلك مشابهة ومشاكلة، وتعالى الله عن المكر والخداع .

والبرهان : هو العلامة ، فقيل :
رأى صورة أبيه أمامه ، أو **تجلت أمامه آية** أن الزنى فاحشة وساء سبيلاً ومصيراً .. أو أى **آية من آيات الله أمامه** ومعنى [**هيت**] : تهيأت لك ، أو تعال بلغة حوران .

* * *

---

(١) الأنفال : ٣٠ .
(٢) النساء : ١٤٢.

خامساً : العظات والعبر فى قصة يوسف :

يقول الله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ [1] ، ومن هذه العبر :

١- من صبر على القضاء نال أحسن العواقب : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] .

٢- من يفوض أمره إلى الله يفرج الله همه وغمه : ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [3] .

٣- الله يصطفى من يشاء من عباده من غير سعى ولا إرادة من العبد ، وقد اصطفى الله تعالى يوسف من صغره.

٤-مكر شياطين الإنس والجن وكيدهم لا يسلم منه إلا من عصمه الله سبحانه ، حين يعتصم به ويلجأ إليه .

٥-المجرمون والمفترون يبتلون بأنواع المحن والبلاء فى الدنيا والآخرة . . إلا إذا تابوا وأنابوا . والأنبياء والصالحون يبتلون لرفع درجاتهم عند الله تعالى .

---

(١) يوسف : ١١١ .
(٢) يوسف : ٩٠ .
(٣) يوسف :٨٧ .

٦- الحسد نقيصه متأصلة فى الإنسان إلا من عصمه الله تعالى ؛ لأن الحسد جماع الشرور : فهو الذى طرد إبليس من الجنة ، وجعل ابن آدم يقتل أخاه فلم يرحم إخوة يوسف شيخوخة يعقوب ، ولا الرأفة بيوسف ، مع أنهم إخوة لعلات : [أبوهم واحد ، ولكنهم أولاد خالة] .. وأبوهم من أكابر الأنبياء .

٧- والمعروف يقابل بالمعروف : فالعزيز أكرم يوسف .. ولم يخنه يوسف فى عرضه .

٨- وواجب الإنسان الصبر على ماتجرى به الأقدار .. وإن عظم المصاب ؟؟ تسليماً لله وثقة بحكمته وخضوعاً له .

٩- الخوف من الله ، ومراقبته .. توجب الثقة فى الخائف من الله ، لأنه عارف به ، ويخشاه .

١٠- تعظيم أمر الله والإخلاص له .. يوجب التضحية بكل شىء .. ولو دخول السجن ظلماً فى سبيل الشرف والكرامة ... خاصة إذا كانت البراهين الحقة الثابتة لا تقنع المبطلين والظالمين .

١١- تميل النفس إلى الشهوات ، والتورط فى المهلكات.. ومن استعصم بالله وأطاعه خلصه من

المهلكات . . ومن اتبع الهوى ضل عن السبيل السوى والرشاد ، وتسلمته شياطين الإنس والجن .

١٢- يمتحن الله من اصطفاهم حتى يجتبيهم لنفسه سبحانه . ولذلك يتحملون البلاء والشدة ولا يضعفون وامتحن الله يوسف بمحن كثيرة منها : غيرة إخوته لحب أبيه الزائد له ، وإلقائه فى البئر العميق ، وبيعه فى سوق العبيد بثمن بخس زهيد ، ومطاردة امرأة العزيز له بعنف ، وتفضيله السجن لئلا يقع فى الفحشاء والمنكر ، ودخوله السجن لأعوام كثيرة ظلماً وعدواناً ، وطلبه من المخلوق أن يذكر سيده بحبسه ظلماً وعدواناً ، وكان الأولى به لمكانته أن يفوض الأمر لله الذى خلصه من محن كثيرة .

١٣- يأخذ الإنسان فى الأسباب ، ويترك النتائج على الله . . فيعقوب أمر أولاده أن يدخلوا من أبواب المدينة المتفرقة . . خشية أن يلفتوا النظر بملابسهم وغربتهم . . فيظنوا أنهم جواسيس فى مصر ، أو خوف الحسد .

١٤- وإذا ضاقت الأمور . . يفزع المؤمن إلى الله : قال يعقوب : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ (١) .

---

(١) يوسف : ٨٦ .

١٥- وقد يرمى أعلم العلماء بالجهل والضلال . . كما رمى أولاد يعقوب أباهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (١) .

١٦- من الرؤيا ما هو صادق كرؤيا يوسف ، وصاحبى السجن ، ورؤيا الملك للبقرات والسنابل ، وفى الحديث : [الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان] ، [والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة] .

١٧- العفو من شيم الكرام ، وقد عفا يوسف عن إخوته ، وسأل الله لهم المغفرة ، حين قال : ﴿ لا تَثْرِيبَ (لا لوم) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ (٢) ، وذكر من إحسان ربه عليه أنه أخرجه من السجن ، ولم يذكر أنه أنجاه أيضاً من الجب [البئر] ، لئلا يخجلهم بذكر ما صنعوه معه ، وهذا من أخلاق الكرام .

١٨- النواميس الطبيعية تسقط عند إرادة الله سبحانه ، فقد ألقى على وجه يعقوب قميص يوسف فأصبح بصيراً، كمعجزة ليوسف ، ونجاة يوسف من البئر مع غلبة الظن بهلاك مثله ، وجاءت براءته ممن دبروا له المكيدة .

---

(١) يوسف : ٩٥ .
(٢) يوسف : ٩٢ .

١٩- وسوء الظن أحياناً عصمة : فقال يعقوب لأولاده بعد فقد ولديه : يوسف وبنيامين : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾[(١)] أى زين لكم الشيطان طريقا فى فقد يوسف ، وفى الإدعاء بأن أخاه سرق .. وصدقت ظنون يعقوب السيئة فى أولاده بسبب الغيرة أخيراً .

٢٠- وللنساء مكر عظيم إذا استحوذ الشيطان عليهن ، والتأثير على المحيط حولهن بما يهيج العواطف ، وإلصاق التهم بالبرىء ، كما شوهت زليخا سمعة يوسف وهو برىء ، حتى لبث فى السجن بضع سنين ، بغير ذنب جناه .

٢١- فرج الله قريب إذا دعاه المكروبون .. وقيل أن يوسف دعا بهذا الدعاء وهو فى الجب ، ففرج الله همه وغمه ، وحين قال : [ياصريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، قد ترى مكانى وتعلم حالى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، يا شاهدا غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب : اجعل لى فرجاً مما أنا فيه [ففرج الله عنه ما هو فيه وحفظه ورعاه] .

---

(١) يوسف : ٨٣ .

٢٢- واستنبط العلماء بأن « التقوى » لابد أن يكون معها الصبر ، « والإحسان » ، فالتقوى عمل بالأركان ، وإيمان فى القلب ، وصبر على ما يأتى به الله تعالى ، والإحسان فى القول والعمل ، وأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وراجع (سورة النحل : ٢٧ ، ١٢٨).

٢٣- لابد من تقديم المشيئة فى كل عمل طيب حتى يباركه الله ، وفيه تسليم ورضاء بما يختاره الله ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (١) .

٢٤- وحسن أن يتمنى الإنسان الموت على دين الإسلام وأن يحشر فى زمرة الصالحين .

٢٥- والإسلام دين الأنبياء جميعاً ؛ إذ أن معتقدهم فى الإيمان واحد لا يتغير . . ولكن تتغير الشرائع فى الصوم والصلاة والصيام والعبادات ، وكانت رسالة الإسلام الخاتمة والمهيمنة ، والهادية إلى الصواب إذا ضلت البشرية الرشد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (١) .

---

(١) يوسف : ٩٩

(١) المائدة : ٤٨ .

٢٦- والقصص في القرآن الكريم جاء للعظة والعبرة ، وليس للتسلية وقطع الوقت : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

٢٧- ومن أعظم الناس فراسة - كما قيل - أربعة :

(أ) عزيز مصر حين قال لإمرأته : أكرمى مقام يوسف عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .. فضرب يوسف المثل الأعلى فى الأمانة ، وتفسير الرؤى ، والدعوة إلى الله بين الطغاة والجبارين ، وأنقذ مصر وجيرانها من مجاعات مهلكة سنين عددا .

(ب) وفراسة بنت شعيب - إذا كان هو شعيب - حين قالت لأبيها فى شأن موسى عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾(١) فكان موسى نعم القوى الأمين .

وسألها كيف عرفت القوة والأمانة فيه ؟ فقالت : قهر الرعيان ليسقى غنمنا حين أبعدونا عن السقيا ، أو رفع حجراً ثقيلاً - وحده - عن البئر ، ليتمكن من السقيا .

(جـ) وفراسة خديجة - رضى الله عنها -

---

(١) يوسف : ١١١ .

(١) القصص : ٢٦ .

حين أخبرها النبى بما حصل له فى غار حراء وخاف ، فقالت له : أخلاقك عظيمة ، والله حافظك . . وقال له ورقة بن نوفل : ستكون خاتم الأنبياء والمرسلين وليتنى أكون حيًا حين يخرجك قومك ، لأنصرك وأدافع عنك ، فنبينا ما كان يعلم أنه سيكون نبياً . . وتعجب من أن يخرجه قومه من بلده ، ومعه دعوة الهدى والنور ولكن ورقة بن نوفل علم ذلك من الكتب الصحيحة السابقة .

(د) وفراسة أبى بكر حين استخلف عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - فى وقت كان المسلمون كثرة بحاجة إلى قيادة عمر ، وشدته فى الحق ، وخوفه من الله ، وحمل الناس على الصواب ، وبصره بنور الله تعالى ، وزهده فى الدنيا حين أوصى بألا يولى ابنه (عبد الله) الخلافة من بعده ؛ لأنها تبعه ومسئولية وأمانة كبيرة ، ويكفى أن واحداً من آل الخطاب حملها فى الدنيا .

٢٨- ومن أعمته نفسه وتبع شيطانه . . لا يبصر المقاصد العالية لصنع الله . . فيسخط ويلوم الناس الذين يحسنون الظن بالله ، ويعتمدون عليه ويفوضون له فتقع المعجزات . كما قال يعقوب : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » لأنه : « ذو علم لما علمناه » من دون الناس . . فوقع ما كان يظن أنه المحال وخاب ظن أولاده .

٢٩- وعلى الداعى إلى الله والخير أن يصبر على أذى الناس بالقول والفعل ، فالعاقبة للمتقين ، والذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم .. خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم .. كما قال الرسول ﷺ .

* * *

سادساً : ليس هناك خطأ من يعقوب ولا من ابنه يوسف :

حزن يعقوب حتى عمى بصره ؛ لأن فجيعته كانت كبيرة فى فقد محبوبيه يوسف ، وبنيامين وهو إنسان كبير يحنو على صغيره وأخيه ، ولعل الاستغراق فى الحزن كان مباحاً فى شريعتهم على عكس شريعة الإسلام التى توصى عند النوائب والكوارث بالصبر والتصبر ، والرجوع إلى الله تعالى ، وتفويض الأمر له ، والرضا بقضائه وقدره . وتذكر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لله وَإِنَّا إليْه رَاجعُونَ ﴾[1] ليكون للحزانى وعد الله القائل : ﴿ أُولَئكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[2] ، لا

---

(١) البقرة : ١٥٦ . (١) البقرة : ١٥٧ .

الحزن الطويل ، ولاالصريخ ولا العويل ، وشق الجيوب ، ولطم الخدود ، وأعمال الجهلاء .

* ويوسف لم يخطىء حين قال لساقى الملك : ﴿ اذْكُرْنِى عندَ ربِّكَ ﴾[1] ؛ لأنه مسجون ظلماً وعدواناً ومن حقه أَن يتساءل ويشكو ، وإنما كان الأولى به أن يطلب كل شىء من الله القوى القادر . . فهو صنع خلاف الأولى فقط ؛ إذ طلب من المخلوق مثله ما يجب طلبه من العظيم القوى الذى خلصه من مصائب كثيرة وكبيرة أحاطت به، فهو صنع خلاف الأفضل فقط .

* وكيد يوسف لإخوته لإبقاء بنيامين عنده من الكيد المحبوب لما فيه من الحكمة والمصلحة للعجوز يعقوب ، وسلامة بنيامين فى الحضور ، وحضور الأسرة كلها ليجمع شملها فى بلد الرخاء مصر ، والتحايل بأى شىء لأخذ الحق لا بأس به بدون ظلم .

* ويوسف لم يغتب إخوته بقوله : « أنتم شر مكاناً » لأنه أسر ذلك فى نفسه ، وحديث النفس لا يؤاخذ به

(١) يوسف : ٤٢ .

الإنسان إذا لم يعلنه وتاب عنه .. والواقع أن ما صنعه إخوة يوسف كان أسوأ بكثير من قولته : لأنهم عزموا على التخلص من يوسف سابقاً ، بالقتل ، أو التشريد ، أو الإلقاء فى البئر ، مما يعرضه للبلاء والهلاك ، وأحزنوا أباهم الصالح ثمانية عشر عاماً .

* وتمنى يوسف الموت على الإسلام ، وإلحاقه بالصالحين.. لا عيب فيه ، لأن تمنى الموت عند الفتن مباح حتى فى الإسلام ، أو أنه قال ذلك عند احتضاره ودنو أجله ، بعد أن عاش مائة وعشرين عاماً ، كما قيل.. وأمنية يوسف هى أمنية الصالحين .

* ودفن يوسف أباه يعقوب فى فلسطين بجانب والده إسحاق ، ثم دفن يوسف بجانب والده يعقوب ، كما أوصى بذلك وتمناه . صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر رسل الله أجمعين .

والحمد لله الذى تتم به الصالحات.

د . توفيق محمد شاهين



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٧٣٧٩ / ٩٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-225-110-8